

مظاهر التجديد في التفسير عند الإمام عبد الحميد بن باديس

الدكتور رمضان خلف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

تمهيد:

نعني "بالتجديد التفسيري" في هذا المقام إعادة بعثه وإحيائه، وإعداده بما يلبي حاجة الأمة الإسلامية ويوفر الثقة الكافية فيه، والمثلة في القدرة على النهوض بالأمة وتلبية حاجاتها المتجددة و المطردة زمانا ومكانا، وأما كلمة "مظاهر" فنعني بها الجوانب المختلفة التي مسّها هذا التجديد، وكانت هذه الجوانب مقصودة ومخصوصة بهذه الجهود التجديدية¹، ولما كانت التزعة التجديدية لازمة بشرية من جهة، وكان التجديد في التفسير فيه المحمود والمذموم من جهة ثانية، رأينا ضرورة إلقاء نظرة تحليلية وتقويمية في جهود الإمام العلامة عبد الحميد بن باديس بالقدر الذي يتسع له هذا المقال.

وقد غلب على تفسير القرآن الكريم عبر القرون المختلفة نزعة التجديد في منهجه ومضمونه، وهو شيء مشروع إذا تحلى بشروطه وضوابطه، باعتبار أن عمل المصلحين والمجتهدين في حد ذاته هو عبارة عن تجديد وإحياء لعلاقة المسلمين بدينهم

¹ - محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، دار السلام للنشر، القاهرة، ط1، 2008، ص 119. وانظر، أبو الأعلى المودودي، موجز تجديد الدين وإحيائه، ط3، دار الفكر، لبنان ص 16.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان مخلف

وبكتاب رهم، وقد عبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه المشروعية بقوله: " إن الله سيبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"¹ وعلى الرغم من صحة المقولة الشهيرة " لم يترك الأول للآخر شيئاً" فإنها لا تؤخذ على إطلاقها، فإذا كان المفسرون الأقدمون قد وقوا كتاب الله حقّه بالبحث والدراسة في الناحية اللغوية والنحوية والبلاغية والفقهية والعقدية وغيرها .. حتى أصاب حركة التفسير جمود وركود لعقود طويلة من الزمن، فإنه لما جاء عصر النهضة العلمية الحديثة وما تبعها من تغيرات جذرية على المستوى السياسي والفكري قد حمل علماء الدين ورواد الإصلاح على التحرر من قيد ذلك الركود، والتوجه إلى إحياء حركة التفسير من جديد، مع العمل على تمحيص التفسير مما مزج به على غير ضرورة لازمة وإلباسه ثوبا جديدا يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميهِ الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق يجد بالغ وجهه ظاهر بين القرآن وما جدّد من نظريات علمية صحيحة في العلوم التجريبية والإنسانية على حد سواء، وذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو كتاب الله الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله².

ومما تميز به الإنتاج التفسيري في هذا القرن العشرين أن أغلب من انتدب للكتابة في التفسير هم رواد الحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي، حيث كانوا يرون بأن لا سبيل لاسترجاع الأمة لمجدها ومكانتها وحقوقها المسلوبة إلا بالرجوع إلى دينها، وأن خير سبيل للرجوع بالأمة إلى دينها وربطها بأصالتها هو القرآن الكريم، فهرعوا إلى خطاب الأمة من خلال جهودهم في التفسير سواء كان هذا التفسير مكتوبا أو مشافهة، فكانوا يثّون آراءهم الإصلاحية والتجديدية من خلال إسقاط

¹ - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة: 110/4.

² - التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 496/2 بتصرف.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
معاني الآيات القرآنية على واقع الأمة، ومن بين هؤلاء الرواد والمجددين الشيخ الإمام
عبد الحميد بن باديس الذي نتخذه نموذجاً في هذا المقال عند حديثنا عن مختلف مظاهر
التجديد في التفسير، وتمثل فيما يأتي:

التجديد في لغة المفسر ويتجلى في:

1 - البعد عن الغوص في الخلافات اللغوية والنحوية عند اللغويين

واحتجاجاتهم التي حجبت مادة التفسير وذهبت بصفائه ورونقه

كان الشيخ ابن باديس رحمه الله يتبرم من أعمال المفسرين الذين أغرقوا كتبهم
بالمباحث النحوية واللغوية، كما كان يضيق ذرعاً من تلك الطرق المتبعة في جامع
الزيتونة في تدريس مادة التفسير للطلاب، حيث كان التعليم يقوم على تغليب
المناقشات النحوية والشقشقة اللفظية، فانتقد ذلك بشدة وثار عليه وتجاوزته في دروسه
في التفسير، وفي ذلك يقول: (وفي جامع الزيتونة - عمره الله تعالى - إذا حضر
الطالب بعد تحصيل التطويح في درس تفسير فإنه - ويا للمصيبة - يقع في خصومات
لفظية بين الشيخ وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه منها من قبل، فيقضي في
الخصومات أياماً وشهوراً فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ، أو ما تجاوزه إلا قليلاً
دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سنته في المباحكات بدعوى
أنها تطبيقات لتلك القواعد على الآيات، وكأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد
الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية)¹

وهكذا كان الإمام ابن باديس رحمه الله يرى أن المباحث اللغوية مكتملة للتفسير
وليست هي التفسير نفسه، ولذلك كان يمهّد بمثل هذه المباحث في تفسير كل آية

¹ - عبد الحميد بن باديس مفسراً، عبد الرحمن سلوادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م
ص 169.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

تحتاج لذلك، ولكنه يميزها بعنوان يفصله عن التفسير، ومن هذه العناوين التي يخص بها هذه المباحث اللغوية والنحوية: "الألفاظ"، "المفردات"، "الكلمات"، "التراكيب"، "فقه لغوي"¹

ففي تفسير قوله تعالى: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوآن كفور"² يبدأ بالمبحث اللغوي تحت عنوان "الكلمات" فيقول: (دفع الشيء صدّه وردّه، والدفاع عن الشيء حمايته بصدّ ما يؤذيه عنه، وقرئ في المتواتر "يدفع" وقرئ "يدافع" وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع فجيء بفاعل الذي يقتضي المغالبة في أصله، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ ..، وخان إذا ضيّع ما جعل في حفظه وعهدته، والخوآن الكثير التضييع لما استحفظ، والكفور الكثير الجحود للنعم فلا يعترف بها ولا يؤدي شكرها)³.

ثم ينتقل إلى التراكيب النحوية وما فيها من دلالات تخدم الهدف فيعنون لها بقوله "التراكيب" فيقول: (عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف وأعداؤهم في كثرة وقوة — كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت هذه الآية بُعيد الهجرة — تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم، فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً بـ "إن" . ولكون هذا الدفع متجدداً جيء بالفعل مضارعاً، وليبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى، وأكدت بـ "إن" لأن الأولى تحمل المحاطب على أن يسأل سؤال

¹ - أنظر ابن باديس حياته وآثاره: 1/381، 1/388، 1/389، 1432.

² - سورة الحج، الآية: 38.

³ - ابن باديس حياته وآثاره: 1/338.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون؟ فأجيب بالتأكيد، وحذف مفعول يدافع
ليعم كل ما يدفع فيشمل كيد جميع الكائدين¹.

فلاحظ ابن باديس كيف أوجز في المباحث اللغوية والنحوية بما يكفي لإيضاح
المعنى العام للآية، ثم وجّه اهتمامه لمرامي الآية ومقاصدها وما يمكن أن يستفاد منها،
وهو ما ينبغي أن ينصب عليه جهد المفسر حسب رأيه.

2 — تبسيط أساليب التعبير والخطاب، وتغليب الاهتمام بالفكرة والمضمون

على حساب الشكل والصناعة البديعية.

لقد كان ابن باديس في تفسيره للقرآن الكريم يهدف إلى تبليغ أفكاره
الإصلاحية لعموم الشعب الجزائري، ومن هنا كان يتوخى الأساليب الواضحة
والتعبيرات السهلة، وأكثر ما كانت هذه البساطة في الأسلوب عندما يعرض للمعنى
العام الآية الكريمة فيختار أسهل العبارات وأرقها وأقربها للقلب والوجدان، فمن ذلك
ما جاء في تفسير قوله تعالى: "وحُشِر لسليمان جنوده من الإنس والجن فهم
يوزعون"² فبعد شرح معاني الألفاظ تحت عنوان "الألفاظ والتراكيب، يتبعها بعنوان
ثان وهو "المعنى" فيقول: (كان لسليمان — عليه الصلاة والسلام — من الجن والإنس
والطير جنود معيّنون معروفون يتركب منهم عسكره، يكونون متفرقين، فإذا عرض
عليه أمر جمعهم، وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم، فهم الذين
يجمعونهم عند الحاجة إليهم، فأراد سليمان أن يسافر فأمر أعوانه بجمع الجنود

¹ - المصدر نفسه: 359/1.

² - سورة النمل، الآية: 17.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
فجمعوهم له، فلما اجتمعوا تولى رؤساءهم تنظيمهم في سيرهم وبمنعوتهم من الخروج
عن النظام¹.

فأنت ترى تلك العبارات السهلة والمباشرة من الخطاب المباشر الذي يتبناه في
نقل معاني القرآن الكريم إلى المخاطبين.

3 — الدعوة إلى الاهتمام بلغة القرآن وإحياء ما درس منها والكشف عن

مزاياها وخصائصها في مجال البحث والمعرفة

كان الشيخ ابن باديس عليه رحمة الله يرى أن الإسلام والعربية وجهان لعملة
واحدة، ومن هنا كان ابن باديس يصرح في أكثر من مناسبة بأنه يعيش من أجل
الإسلام والعربية والجزائر، وأن هذه العناصر الثلاثة لا يمكن الفصل بينها بحال، ذلك أن
الاستعمار مثلما يستهدف الوطن للاستحواذ على ثرواته كان يستهدف الدين واللغة
للقضاء على مقوماته²، ومن هنا كان جهده الإصلاحية يهدف إلى إحياء الإسلام في
نفوس الناشئة ويعمل على إحياء اللسان العربي وحمائته من كل ما يهدده، وفي ذلك
يقول: (قد فهمنا والله ما يراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على
المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي — بعون الله — في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما
يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا، وإننا على يقين
من أن العاقبة — وإن طال البلاء — لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا عرفنا إيماننا

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 24/2.

² - انظر: د/ محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم بدمشق،
والدار الشامية في بيروت، ط1، 1995، ص 86.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
وشاهدنا عيانا أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على
محاربتهما¹.

ذلك أن التوجه الفرنسي كان يعتمد معاداة العروبة والإسلام معا، فعملت على
محو اللغة العربية، وطمس الثقافة العربية والإسلامية، وبدأ ذلك بإغلاق المدارس
والمعاهد، ثم تدرج مع بداية القرن العشرين إلى منع تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة
أجنبية، وعدم السماح لأي شخص بممارسة تعليمها إلا بترخيص خاص وفي حالات
استثنائية .. واهتم الفرنسيون إلى جانب ذلك بالترويج للهجات المحلية على حساب
اللغة العربية، فشجعوا اللهجات البربرية، واتبعوا كل سبيل لمحاربة اللسان العربي، بل
اعتبروا اللغة العربية الفصحى لغة مّيتة في الجزائر².

وأمام هذه المحاولة الشرسة التي كانت تستهدف لغة الإسلام والقرءان، نجد
الشيخ البشير الإبراهيمي ينشر سلسلة من المقالات في ثمان حلقات في مجلة عيون
البصائر كلها في الرد على المحاولات اليائسة للمستعمر عن طريق جملة من القوانين
التعسفية التي وصفها الإبراهيمي بقوله: (..هذا سجل واف للقوانين والقرارات
المشبكة حول مسألة واحدة وهي التعليم العربي في الجزائر، وهي كما ترى من
الكثرة بحيث أصبح القانون الأصلي معها كثوب الفقير، كله رقع وكله خروق..)³
وفي معرض الرد عن محاولة سلخ العنصر البربري عن لغة القرءان قال
الإبراهيمي: (من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا
العربية عفوا لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول

¹ - الشيخ عبد الحميد بن باديس .. رابع تركي: 341، والبصائر: السنة الثامنة، 1938م.

² - مصطفى عاشور، في ذكرى الاستقلال، مقال على موقع "إسلام أون لاين بالإنترنت"، 2006.

³ - البشير الإبراهيمي، عيون البصائر: 256/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين، ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان¹.

وهكذا كان إحياء اللسان العربي وتعليمه أحد المقاصد الأساسية في دروس التفسير للشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، فلا يمر بأية فيها ذكر للسان العربي الذي شرف الله به هذه الرسالة الخاتمة أو ورد ذكر هذه الأمة الأمية التي أكرمها بهذا النبي الأمي إلا سارع بالإشادة بهذا اللسان الذي اختاره الله تعالى ليكون ناطقا به هذا الوحي، والإطناب في بيان مزاياه، وحث طلبته على تعلمه وأشعرهم بثقل المسؤولية تجاهه².

التجديد في مجال الإعجاز القرآني ويتجلى في:

1 - إعادة صياغة نظريات الإعجاز القديمة وغربلتها وتقديمها في أسلوب

يواكب المعارف الحديثة في الدراسات اللغوية وغيرها.

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم وجعل فيه من الآيات والبيّنات التي تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه النبوة، ولما كان هذا القرآن هو الرسالة الخاتمة والباقية إلى يوم الدين جعل الله فيه من هذه الآيات والمعجزات ما لا يقنيها الدهر، وقد دلّ القرآن الكريم على هذا المعنى في قوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد"³ ومن هنا اهتم ابن باديس في تفسيره بهذا الجانب وجعله أحد مقاصد المفسر لما يحصل معه

¹ - المصدر نفسه: 221/2.

² - انظر: محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، 87/1.

³ - سورة فصلت، الآية 52.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان بخلف

من فوائد إيمانية كبيرة للمخاطب، فلا يمر بأية يلمس فيها وجهها من وجوه الإعجاز إلا كشف عنه في أسلوب يناسب أحوال عصره، ويصل إلى قلوب المخاطبين ويهز أعماقهم، فمن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير قوله تعالى: "والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون .."¹ وتحت عنوان "بلاغة التنويع والتزييل" قال ابن باديس رحمه الله: (لما كانت السماء متلاحمة الأجزاء في العلاء ثابتة على حالة مستمرة في هذه الدنيا على البقاء ناسبها لفظ البناء ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة، ولما كانت الأرض يطرأ عليها التبديل والتغير بما ينقص البحر من أطرافها وبما قد يتحول من سهولها وجبالها وبما قد يتعاقب عليها من حرث وغراسة وخصب وجذب ناسبها لفظ الفراش الذي ييسط ويطوى ويبدل ويغير، ولما كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة ضرورية للحياة عليها وكلها مهتأة وكثير منها مشاهد وغيره معدّ يتوصل إليه بالبحث والاستنباط ناسب ذكر التمهيد، ولما كانت الأزواج مكوّنة بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق، ولما كان النظر في الزوجية هو نظر في أسباب التكوين لتلك المذكورات السابقة وهو محصل للعلم الذي يحصل من النظر فيها قرن بلفظ الذكر)².

2 - الكشف عن وجوه جديدة في الإعجاز القرآني بما يخدم الدعوة

الإسلامية ويجدد ثقة الأمة في دينها .

لقد كان إعجاز القرآن الكريم في دراسات السابقين لا يكاد يتعدى الجانب البلاغي في القرآن الكريم، انطلاقاً من كون العرب يوم نزول الوحي لا يتقنون إلا بلاغة الخطاب، بيد أن القرآن الكريم نزل ليخاطب البشرية جمعاء من عرب وعجم،

¹ - الذاريات، الآيات: 47 - 50.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 95/2

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

وفي كل زمان ومكان، وليس العرب الذين شهدوا التزليل بأحوج من غيرهم لمعجزة القرآن، بل كلّ مخاطب بالقرآن له الحق أن يقف على وجه من الإعجاز القرآني لتحصل له الحجة على صدق هذا القرآن، ومن هنا رأى ابن باديس رحمه الله أن معجزات القرآن الكريم لا تنقطع كما أنّها لا تنحصر فيما وقف عليه العرب من إعجاز بلاغي، فراح يلتمس آثاره في جوانب أخرى مما تدركه العقول في عصره، فأجاد وأفاد، ومن هذه الوجوه:

أ — الإعجاز السنني

ب — الإعجاز التشريعي

ج — الإعجاز العلمي

أ — ففي الإعجاز السنني يعمل ابن باديس رحمه الله على الكشف عن سنن الله في الخلق أي في الكون وفي العمران وفي النفس الإنسانية، ويبين أن القرآن الكريم قد نص على قوانين ربانية تحكم هذا الكون وتضبط سيره، وأن هذه القوانين إذا توفرت شروطها جاءت نتائجها بصفة حتمية، وكان ابن باديس يستطرد لشرح هذه القوانين وتطبيقاتها على المم والحضارات الإنسانية لما كان يرى من أهمية في ذلك وكأنها مقصد من مقاصد القرآن الكريم .

ففي تفسير قوله تعالى: "وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً"¹

وقبل أن يشرع في تفسيرها يمهد لها بتمهيد طويل فيقول: (الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار، طور الشباب وطور الكهولة، وطور الهرم، فيشمل الطور الأول نشأتها إلى استجماع قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة، ويشمل

¹ - سورة الإسراء: الآية 58

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان إلى استكمال قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب. ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال، وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلف أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار.

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز في غير ما آية، فذكر أعمال الأمم وأنها مقدره محددة بأجلها في مثل قوله تعالى: "ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"¹ وفي قوله تعالى: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين"² وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى: "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون"³ فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا، وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه، وذلك هو الطور الأول، طور الشباب للأمة الإسرائيلية، وذكر الطور الثاني وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى: "وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان..⁴ وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى:

¹ - سورة الأعراف، الآية 33.

² - سورة الأنبياء، الآية 11.

³ - سورة الأعراف، الآية 128.

⁴ - سورة النحل، الآية 112.

مظاهر التحديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
"وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً"¹ وإهلاكهم يكون بعد
إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم فإهلاكهم
هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاثة، وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء
البيان في قوله تعالى: "وإن من قرية إلا نحن مهلكوها.." ²

ب - الإعجاز العلمي:

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية
الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب
وكل شيء فصلناه تفصيلاً"³

فبعد أن فسر الآية على مقتضى دلالة اللغة، نقل أقوال علماء الهيئة في الكواكب
والنجوم والشمس والقمر ثم خلص إلى القول: (لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة
القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه صلى الله عليه وسلم، وبرهانا
لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان، فإن ظلام جرم القمر لم يكن
معروفا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادا قليلين من علماء الفلك، وأن حمو جرمه
أولا وزواله بالبرودة ثانيا ما عرف إلا في هذا العهد الأخير، والذي تلا هذه الآية
وأعلن هذه الحقائق منذ نحو أربعة عشر قرنا، نبي أمي من أمة أمية كانت في ذلك العهد
أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقوله إلا عن وحي من الله الذي خلق
الخلايق وعلم حقائقها ..

كفناك بالعلم في الأمي معجزة ** في الجاهلية والتأديب في اليتيم¹

1 - سورة الكهف، الآية 60.

2 - سورة الإسراء، الآية 58.

3 - سورة الإسراء، الآية 12.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

وفي تفسير قوله تعالى: "والأرض فرشناها فنعم الماهدون"² وتحت عنوان "دقيقة كونية في آية قرآنية" قال ابن باديس: (شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه، وما تحت الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه، فإن تحت القشرة العليا من الأرض المواد المصهورة والمياه المعدنية والأبخرة الحارة مما تنطلق به البراكين المنتشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة فكانت القشرة العليا من الأرض مثل الفراش تماما)³.

ثم قال في الآية التي بعدها "آية كونية في الآية القرآنية" من الأزواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قدم مثل السماء والأرض والليل والنهار والحر والبرد والذكر والأنثى في الحيوان بعض النبات، ومنها ما كشفه العلم بما مهد الله له من أسباب كالجزيء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرة التي هي أصل التكوين فلا فردية إلا لخالق هذه الأزواج كلها الذي أنبأنا بما قبل أن تصل إلى تمام معرفتها العقول فكان معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الإنسان في العلم والعمران.⁴

ج - الإعجاز التشريعي:

ويقصد بالإعجاز التشريعي ما تضمنه القرآن الكريم من تشريعات حكيمة ظلت صالحة لكل زمان ومكان وبالرغم من اختلاف الظروف والأحوال وتطور الحياة البشرية، مما يدل على أن مثل هذا التشريع لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، فكان الإمام ابن باديس يقف عند الآيات التي تحمل مثل هذه الدلالات فيطلب في شرحها والكشف

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 195/1

² - سورة الذاريات، الآية 48

³ - ابن باديس حياته وآثاره: 93/2.

⁴ - المصدر نفسه: 94/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
عن جوانبها، ويهدف من وراء ذلك إلى إعادة بناء الشخصية الإسلامية القوية علما
وإيمانا، تلك الشخصية التي تعتر بانتمائها وميراثها وماضيها، فتنتقل منه لبناء حاضرها
ومستقبلها.

3 — محاولة الاستفادة من منجزات العلوم الحديثة في نقل الدراسات الإعجازية إلى الميدان العملي والتطبيقي.

لم يكنف ابن باديس في حديثه عن مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم بما يدل
عليه من صدق النبوة، بل يرى في هذه المظاهر — زيادة على ذلك — توجيها
للمسلمين وحثا لهم علو بلوغ أهداف معينة تحقق مصالح الدنيا والآخرة، ومن ذلك
مثلا ما جاء في استعراضه لقصة سليمان عليه السلام وما حباه الله به من قوة مادية
كمعجزة لبي إسرائيل، فإن ابن باديس حاول أن يغوص ويتتبع إشارات ودلالات تلك
الآيات وما ينبغي أن يستفاد منها في واقع حياتنا السياسية والعسكرية والحضارية .

ففي تفسير قوله تعالى: "وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم
يوزعون"¹ قال ابن باديس: — تحت عنوان تاريخ وقدوة — (تعرض علينا الآية هذه
الصورة التاريخية الواقعية تعليما لنا وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة، ولا شك أن
الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، وأن مثل هذه الآية كان لها
الأثر السريع في نفوس العرب لما أسلموا، فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم
يكن معروفا عندهم في الجاهلية، وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس
كل مجتمع واجتماع، وأن القوة والكثرة وحدهما لا يغنيان بدون نظام، وأن النظام لا
بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون)².

¹ - سورة النمل، الآية 17

² - ابن باديس حياته وآثاره: 25/2

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

ثم قفى بعنوان ثان على ما سبق بقوله "طبيعة وشريعة" فقال: (في عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان نجد الطبيعة — بصنع الله — تستخلص الأعلى من الأدنى والأقوى من الأضعف، فتجد الممتاز من أصل الخلق، وبانتخاب الطبيعة في هذه العوالم الثلاث، كما تجد الذهب في المعدن، وتجد الزهر والثمر في النجم والشجر، وتجد الملكة من النمل والنحل مثلا، فالإنسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعي، ففيهم الممتازون الذي يحتاج إليهم النوع الإنساني في صلاح حاله ومآله ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه في أممه ومجتمعاته وجماعاته، فالهيئة الحاكمة والأفراد المنظمون والقادة المسيرين من ضروريات المجتمع الإنساني ومقررات الشرع الإنساني مثل ما في هذه الآية من أمر الوازعين، ولما ولي الحسن البصري القضاء قال لا بد للسلطان من وزعة أي أعوان يكفون الناس عن الشر والفساد ويتولون تربيتهم وتنظيمهم)¹.

وإذا جاء ابن باديس إلى تفسير قوله تعالى: "حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون"² فإنه لا يكتفي بما دلّت عليه الآية بالعبارة، بل يرى أن ما دلت عليه الآية بالإشارة أعظم، وأن الأمة إليه أحوج، ولذلك فسر ظاهر الآية في جمل معدودة، ثم أسهب في عرض الإشارات التي تحملها، وجعل هذه الإشارات تحت عناوين ثلاثة مميزة وإن كانت تصب في معنى واحد، إلا أنه يهدف إلى ترسيخ هذا المعنى والتأكيد عليه فكان التكرار مقصودا، وهذه العناوين هي:

¹ - المصدر نفسه: 26/2.

² - سورة النمل، الآية 18

1- عبرة وتعليم:

فقال: (عاطفة الجنسية غريزة طبيعية، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتتجو بمفردها، ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها، إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدوهم ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأندرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار.. فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلا بحياة قومه، ولا نجاة له إلا بنجاحهم وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.

2- واجب القائد والزعيم:

هذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالإنذار، فلا يصلح لقيادة الأمة وزعامتها إلا من كان عنده من بعد النظر وصدق الحدس وصائب الفراسة وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحس ويتوقع.

3- عظة بالغة:

هذه نملة وفت لقومها وأدت نحوهم واجبتها، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه، هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهما لقومه فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويضبه بيده عليهم، آه ما أحوجنا - معشر المسلمين - إلى أمثال هذه النملة¹.

فانظر إلى براعة ابن باديس في تفننه في استنباط العبر والدلالات من قصة نملة سيدنا سليمان عليه السلام، ومع أن القصة واردة أساسا في بيان عظمة ملك سيدنا

¹ - المصدر نفسه: 28/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

سليمان وتميز ملكه بما لا ينبغي أن يأتي أحد بمثله، إلا أن ابن باديس يطنب في استلهاهم العبر منها ويقلبها على جميع وجوهها ليستخلص منها إشارات تلامس القلوب الغافلة فتوقظها وتوخز الضمائر الجامدة فتثير فيها النخوة والغيرة للذود عن حياض قومها. ولا يكتفي ابن باديس بما تدل عليه آيات القرآن الكريم في حديثها عن الكون من إعجاز وتحد للدلالة على صدق النبوة، بل يرى فيها زيادة عن ذلك تشويقاً للقرآن الكريم في العلوم الكونية، ويرى أن هذا الفهم قد سبقنا إليه سلفنا الصالح فعملوا به وأخذوا فسادوا وتمكنوا من أسباب القوة والظهور.

من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: "ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون"¹ حيث كتب تحت عنوان "تشويق القرآن إلى علوم الأكوان": (من أساليب القرآن إلى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه في السماوات والأرض لنشتاق إليه، وننبعث في البحث عنه واستجلاء حقائقه .. وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل إلى من، ولن نعز عزمهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم.)²

التجديد في التعامل مع مرويات التفسير والآثار ويتجلى في:

1 - البعد عن الروايات الضعيفة في التفسير وبيان أثر تلك المرويات في

تربية الأمة وتوجيهها.

¹ - سورة النمل، الآية 25

² - ابن باديس حياته وآثاره: 47/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

قام التفسير في بداية نشأته على النقل والرواية، فكان يعتبر جزءاً من الصناعة الحديثية، ومن هنا أصابه من العلل ما أصاب رواية الحديث الشريف، فكان منه الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، أو كان على الجملة فيه المقبول والمردود، وكان لتلك المرويات الضعيفة والمردودة أثرها السيئ على الإنتاج التفسيري عبر القرون الماضية، ومن هنا نجد رواد التفسير في القرن العشرين تحاشوا مثل هذه الروايات ونزهوا عنها كتاباتهم في التفسير، وعملوا على بيان فسادها وتشويشها على الفكر الإسلامي، ومن هؤلاء الذين تشددوا في مرويات التفسير الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، ومعتده في ذلك قوله تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً"¹ حيث كان يرى في الآية الكريمة هياً صريحاً عن إتباع الأقوال ونقل الأخبار من غير تثبيت ولا تمحيص، فقال في الفرع الرابع من تفسير هذه الآية: (لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي — صلى الله عليه وسلم — من الحديث الضعيف، لأنه ليس لنا به علم، فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثاً ضعيفاً في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب، ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها في أصل ثبوتها)²

ثم قال في الفرع الخامس من نفس الموضوع ما نصه: (أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب، فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم بما جاء في القرآن العظيم، أو ثبت في

¹ - سورة الإسراء، الآية 36.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 273/1.

مظاهر التوحيد في التفسير ----- د. رمضان بخلف

الحديث الصحيح، وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت، فلا يجوز الالتفات إلى شيء من ذلك..¹

وفي تفسير قوله تعالى: "فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين"² وتحت عنوان "تحقيق تاريخي" يقول ابن باديس رحمه الله: (رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تُلقَى من غير تثبت ولا تمحيص من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه³، وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه وصرح الذهبي ببطلانه، ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارفها ومغارها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام)⁴.

2 - التثبت في المرويات الصحيحة، وتوجيه معانيها نحو المفاهيم الإيجابية

والمنسجمة مع معاني القرآن الكريم، والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية .

لم يتزل القرآن الكريم والسنة النبوية ليناقض بعضهما بعضا وهما يصدران عن مشكاة واحدة، بل جاءت السنة مفصلة للقرآن الكريم ومصدقة له، ومن هنا كان ابن

¹ - المصدر نفسه: 273/1.

² - سورة النمل، الآية 22.

³ - يبدو أن هذه الأخبار من وضع القصاصين والدجالين نسبوها لكعب الأحبار ووهب بن منبه كذبا وزرا، أما أصحاب أشهر كتب التفسير فلم يرووا شيئا من ذلك عنهما، أنظر مثلا جامع البيان للطبري 178/11 وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 181/13 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 138/5 .

⁴ - ابن باديس حياته وآثاره: 40/2.

مظاهر التحديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

باديس حريصا كل الحرص على إيضاح المعاني الإيجابية وإبرازها في الآيات القرآنية وتدعيمها بصحاح الأحاديث، ودحض المعاني السلبية وبيان مفسدها وبعدها عن تعاليم الإسلام، فمن ذلك مثلا مفهوم الزهد الذي شاع بين السواد الأعظم بين الشعب الجزائري عن طريق أرباب الحركات الطرقية .

ففي تفسير قوله تعالى: "ففرؤا إلى الله إني لكم منه نذير مبين"¹ يستطرد إلى بيان جملة من المعاني قد دلت عليها الآية الكريمة بالإشارة، ومن هذه المعاني:

أ - تنبيه على وهم: فيقول: (ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها، ومن المصائب بمقاومتها فرارا من الله، لأن الأمراض هو قدرها، والأدوية هو وضعها ودعا إلى استعمالها والتعالج بها، وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها، فكلها منه بقدره، والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم فما فر من قدره إلا لقدره، ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر - رضي الله عنهما - في قصة الوباء: أفرارا من قضاء الله يا عمر؟ قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى الله يرجو منه الخير في غيره².

ب - تحذير من الجهالة: ليس المقصود من الفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش، وتوسيع العمران وتشبيد المدينة، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه، وقد ضل قوم فزعوا ذلك طاعة وعبادة فعطلوا الأسباب وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة، وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله، سئل عن القائل أجلس لا أعمل

¹ - سورة الذاريات، الآية 50.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 97/2

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

شيئا. حتى يأتي رزقي فقال: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي — صلى الله عليه وسلم — إن الله جعل رزقي تحت رمحي، وقوله: تغدو خماسا وتروح بطانا، وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، وهم القدوة.¹

وقد كانت هذه المفاهيم السلبية رائجة في المجتمع الجزائري في عصر ابن باديس بسبب الأفكار التي كان يغرسها أرباب الطرق الصوفية في أتباعهم ومريديهم وهم كثيرون يومئذ، وأثرت بشكل مريع في المجتمع وأعاقته عن النمو والحركة، حتى كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ترى أن هذا الفكر الخاطئ ومن كان يروج له يعد أحد الأسباب الرئيسية التي تضاف إلى جانب الاستعمار في العمل على تقويض أركان المجتمع، وهو ما عبرت عنه جريدة الشهاب سنة 1927م فيما آل إليه المجتمع الجزائري في مقال صنفت فيه أعداء الجزائريين الذين تعاني من وطأهم فقالت: (كان الجزائريون يعانون من ثلاثة أعداء:

العدو الأول: هم المعمرون الذين اكتسحوا أوطانهم باسم الاستعمار، وتوصلوا باسم فرنسا إلى ما لا يرتضيه أبدا أبناؤها الأحرار.

الثاني: هم رجال الزوايا الذين امتصوا أمخاخ العجز والغفل من الجاهليين.

الثالث: بعض "القياد" الذين لم يرحموا أهل البدو وهم عيال الله من الفقراء والمساكين)².

¹ - المصدر نفسه: 98/2.

² - أنظر عدد 117 — 13 أكتوبر 1927 ص 13 نقلا عن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية" د. عبد الكريم بوصفصاف: 191.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

ولم يكن الشيخ ابن باديس معاديا للمتصوفة وآرائهم في كل ما يقولون، بل كان يعرض ما يصدر عنهم على ميزان الشريعة فما وافق أصولها ومقاصدها استحسنته وقدمه، وما كان منافيا لمعانيها السمحة رده وفنده بالأدلة الدامغة.

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى: "وتفقد الطير فقال مالي لا أرى المهدهد أم كان من الغائبين"¹ حيث قال: (سأل سليمان عن حال نفسه فقال: مالي لا أرى المهدهد ولم يسأل عن حال المهدهد فيقول: ما للمهدهد لا أراه؟ فأنكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره، فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال: إنما قال مالي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة المهدهد توقع أن يكون قصّر في حق الشكر فلأجله سلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: مالي؟ وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا آمالهم تفقدوا أعمالهم، هذا في الآداب فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض).²

ثم قال ابن باديس — تحت عنوان توجيه (مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجل علوم القراءان وذخائره، إذ هي معان صحيحة في نفسها، ومأخوذة من التركيب القرآني أخذًا عربيًا صحيحًا، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع، وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول، ومنه فهم عمر وابن عباس — رضي الله عنهما — أجل رسول الله — صلى الله عليه وسلم من سورة النصر، أما ما لم تتوفر فيه هذه الشروط المذكورة، وخصوصًا الأول والثاني فهو لا يجوز في تفسير كلام الله تعالى، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية،

¹ - سورة النمل، الآية 20.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 234.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.¹

وفي تفسير قوله تعالى "أخطت بما لن تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين" وتحت عنوان 'تحقيق تاريخي' يرد ابن باديس ما راج في بعض كتب التفسير من المبالغات في سعة ملك سليمان عليه السلام، فيرد ذلك من خلال إشارة دقيقة في الآية فيقول: (روي في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص من روايات كعب الأخبار ووهب بن منبه، وروى شيئاً من ذلك الحاكم في مستدركه وصرح الذهبي ببطلانه، ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمة الشام)²

3 — تجاوز ما لا فائدة فيه من المرويات في التاريخ ومبهمات القرآن.

أعرض الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره عن الخوض في مبهمات القرآن، لأن الاهتمام بتلك المبهمات مما يصرف عن التأمل في موضع العبرة في القصة القرآنية، فسكوت القرآن الكريم عن أسماء أمكنة وأزمنة وأسماء أشخاص كان مقصوداً لخصر اهتمام السامع في الهدف من القصة، وقد خاض أغلب المفسرين القدامى في تفاصيل تلك الأسماء من باب حب المعرفة التاريخية، ولكن ذلك كان صرفاً عن موضع العبرة، ولذلك كان الشيخ ابن باديس يتحاشى الخوض فيما سكت عنه القرآن ويرى بأن إهمام القرآن في بضعة كلمات لا يطعن في بيانه وتيسيره.

¹ - المصدر نفسه: 235/1.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 40/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

فمن ذلك ما جاء في تفسير مطلع سورة "يس" حيث وقف عند افتتاح هذه
السورة بتلك الحروف المقطعة فقال:

(سؤال وجوابه: القرآن أنزل للبيان، ولا بيان إلا بالإلهام، فكيف يكون في
القرآن لفظ لا يفهم له معنى؟ والجواب أن عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة
افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام
وغيرها من مقاصد القرآن

.. وفي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد
آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها، كحقيقة الكهرباء في الكون، وحقيقة الروح
والعقل في الإنسان، فمثل هذه الحقائق المنغلقة التي يرتد عقل الإنسان عنها خاسئا وهو
حسير، هي التي تعرفه بقدره وبعظمة هذا الكون وفخامة أمره، فيقف بعقله عند حد
النظر والاعتبار والاستدلال بيدع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ومنته
السابعة، دون خلط للأوهام بالحقائق ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق ..

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري فلم يدرك كنهها، لم تقدح في دلالة
آيات الأكوان على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته،
وفضله وإحسانه ورحمته، فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معاني
بضع عشرة كلمة من كلماته، وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية إيقافا
للعقل عند حده وتعريفا له بقدره، وتبيينها له على عظم آيات ربه، كذلك كان خفاء
هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك، ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية في
هذا الجلاء العام والخفاء الخاص جملة الأحكام، كعدد الصلوات والركعات والسجادات

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

التي خفيت على العقول وحكمتها وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجلية في سائر أحكام الشريعة وغيرها، ولم يقدح في حكمة الشريعة في أحكامها خفاء ما خفي في بعضها¹. ثم خلاص ابن باديس إلى موقف عملي بناه على هذه المقدمات فكتب تحت عنوان "بناء العمل على هذا العلم" قائلا:

(قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع والقراءان، مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه ما هو إلا مثل ما عرف في الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع — ما عرف وما عجز — من إله واحد حكيم خبير رحمن رحيم فليذكر الناظر في خلق وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة، وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتعليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف لعجزه ولم يركب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسوا الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة وحيرة، فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعية موضع اليقينيات سببا في صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل)².

¹ - المصدر نفسه: 53/2.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 55/2.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

التجديد في منهج البحث في العقائد ويجلي في:

1 - التحرر من المذاهب الكلامية العقيمة وما ترتب عنها من صراع وتعصب مذهبي، والتي أفرزتها ظروف تاريخية معينة، ولم يعد هناك مبرر لوجودها واستمرارها، وبيان آثارها على الأمة.

إذا رجع الباحث إلى سجل مؤتمر جمعية المسلمين في سنة 1936م استطاع بسهولة أن يعرف موقف الشيخ عبد الحميد بن باديس من تراث علم الكلام وموقف جمعية العلماء بصفة عامة، حيث نقرأ في سجل المؤتمر في فلسفة الإصلاح الديني ما نصه: (..وأما المذاهب الكلامية فلم يكن أثرها بالقليل في تفرق المسلمين وتمزق شملهم.. وقد انقرضت تلك الفرق وانقرض بانقراضها سبب جوهرية من أسباب التفرق بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم، وجعل بأسهم بينهم شديدا وألهاهم بما يضر عما ينفع، تلاشت تلك الفرق ولم تبق إلا أخبار مغاركتها الجدلية في كتب التاريخ وإلا آراؤها المدونة في كتبها فتنة للضعفاء وتبصرة للحصفاء.. ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كليتنا "الراقية" كالأزهر والزيتونة لا تزال جارية على تلك الطرائق وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود، ويستعرض سيدنا المدرس تلك الآراء ثم يدحضها ويقيمها ثم ينقضها، وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك . ويا لضيعة الأعمار)¹.

لقد درس ابن باديس وضع الأمة الجزائرية في ذلك العصر، وما آلت إليه من ضعف وانحطاط، واقتنع بأن من أسباب هذا الضعف فساد منهج التعليم والتربية في

¹ - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي 96/1، 97.

مظاهر التحديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

مختلف المراكز التربوية والتعليمية، ومن هنا نجده يقف عند تفسير قوله تعالى: "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا"¹ فيطيل في عرض مظاهر المهجر لكتاب الله في حياة هذه الأمة في صور يتغافل عنها كثير من الناس فيستطرد تحت عنوان "ترييل" ويقول: (و نحن معشر المسلمين قد كان منا للقرآن الكريم هجر كثير في الزمان الطويل وإن كنا به مؤمنين، بسط القرآن الكريم عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثه مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة، وبين القرآن الكريم مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبين السبيل للتخلي بهذه والتخلي عن هذه مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بقديسيته فهجرنا ذلك كله، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في كثير منها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتطع، وعن السنة البيضاء إلى الإحداث والتبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها والاقْتصار على بقية رسومها للانتفاع بها ومعارضة هداية القرآن بها، وعرض علينا القرآن الكريم هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونبحث ونستفيد ونعمل، فهجرنا ذلك كله إلى "خريدة العجائب" و "بدائع الزهور" والحوت والصخرة وقرن الثور)².

¹ - سورة الفرقان، الآية 30.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 408/1. وانظر آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي 96/1، 97.

ومذكرات الشيخ محمد خير الدين، المؤسسة الوطنية، ص 109.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان بخلف

2 - محاولة أخذ العقيدة صافية نقية من القراءان والسنة وربطها بواقع الأمة

يرى الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله أن العقيدة الإسلامية في عصره قد علاها ضباب كثيف وغطاها غبار ظلمة حتى التبس على العامة الحق بالباطل والهداية من الضلال فصاروا لا يستطيعون التفريق بين ما هو توحيد لله وما هو إشراك به، وما علامات كل منهما، ومن هنا كان يقف عند آيات التوحيد والرد على أهل الشرك طويلا فيستطرد إلى واقع الأمة فينتقد الواقع بأسلوب حكيم ويستنهض ضمائر المستمعين بوسائل خطابية قلما يتيسر مثلها لغيره وهو ما أشار إليه أحد الباحثين المتخصصين في فكر ابن باديس بقوله:

(إن ابن باديس كان له أسلوبه الخاص في التعليم والتدريس أقطاب المدارس التعليمية والتقليدية، وإنما كانت دروسه المرتكزة على مجهوده الذهني تستثير الذكاء، وتستدعي التفكير، بل إن الدرس الديني أو الفقهي الذي تتخلله استطرادات أو تطبيقات مما يجري في الحياة من قضايا وأحداث كان يسلك فيه سبلا تقوده إلى التاريخ أحيانا وعلم الاجتماع أحيانا أخرى، ولا نعدم فيه لمحة من لمحات الخيط السياسي الرفيع إذ يذهب فيها شأوا بعيدا في الشرح والتحليل، ويبدل فيها قصارى ما يملك من جهود وبلاغة، وأقصى ما يتحلى به من إخلاص وصدق لهجة للدعوة إلى مبادئ العقل ومثل الحرية لتكوين إنسان جديد يكون أهلا للاضطلاع بمسؤوليات خليقة له ¹).

وهكذا كان كلما وقف عند أية في موضوع الإيمان والتوحيد، عمل على تقديم تفسيرها، ثم يستطرد لنقل معناها إلى واقع الأمة لوعظ المخاطبين وتبصيرهم بحالهم .

¹ - ابن باديس الرمزي، عبد الكريم بالصفصاف، دار الهدى، الجزائر: 29.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

ففي تفسير قوله تعالى: "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً"¹ وبعد عرض ما يتعلق بالآية من وجوه التفسير يذيل باثنين من العناوين الهامة لربط الآية بواقع الأمة، فتحت عنوان "تطبيق" يقول: (إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين - الجزائريين وغير الجزائريين، نجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك ما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد، فيدعون من فيها ويدقون قبورهم ويندرون لهم ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهدونهم بقطع الزيارة وحبس النذور وتراهم هناك في ذل وخشوع وتوجه قد لا يكون في صلاة من يصلي بهم، فأعمالهم هذه وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعويين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبادة باعتبار الشرع لا باعتبارهم، فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين مقلوباً حتى أصبحنا في هذه الحالة من الضلال)².

وجعل العنوان الثاني "تحذير وإرشاد" ثم قال: (فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذروا غيرهم منه، ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن ينتبه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفریضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين)³.

¹ - سورة الإسراء، الآية 56.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 1/ 290.

³ - المصدر نفسه: 1/ 290.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

3 - التدليل على صحة مذهبه ومنهجه في الدعوة والإصلاح من خلال المقارنة بين برنامجه الإصلاحي وبين نصوص القرآن الكريم وأحكامه.

كان ابن باديس يمارس نشاطه الإصلاحي في خضم صراع وزحام كثيف من الدعوات الفاسدة، وبخاصة تلك الدعوات الطرقية التي كانت تمثل عائقا حقيقيا أمام أي تغيير أو إصلاح، ومن هنا كان ابن باديس يقف عند كثير من الآيات المناسبة للحال فيستعرض من خلالها منهجه الإصلاحي ليبين من وراء ذلك صحة مسعاه ورشاد دعوته مفندا في الوقت ذاته تلك الدعوات المارقة عن الدين والمعطلة لمصالح الدين والأمة.

فمن ذلك مثلا ما جاء في تفسير قوله تعالى: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني.." ¹ حيث يستطرد ليبين معنى الدعوة ومجالاتها فيقول: (فالمسلمون أفرادا وجماعات عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله، وأن تكون دعوتهم على حجة وبينة وإيمان و يقين، وان تكون دعوتهم وفقا لدعوتهم وتبعائها . فمن الدعوة إلى الله دروس العلوم كلها مما يفقه في دين الله ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته، فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع إلى الله، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كل مهين في كل علم وعمل، ومن الدعوة إلى الله بيان حجج الإسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه وبين مزعزي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه، ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بكينهم وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به وتحييهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم، وتحذيرهم مما

¹ - سورة يوسف، الآية 108.

مظاهر التحديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

أدخل من محدثات الأمور عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم، وبيان أنه ما من سبب مما تسعد البشرية به أفرادها وأممها إلا بينه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى البشرية به أفرادها وأممها إلا بينه لهم ونهاهم عنه، وبيان أنه لولا عقيدته المتصلة فيهم وبقاياها الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم لما بقيت لهم — وهم المجردون من كل قوة — بقية، ولتلاشت أشلاؤهم — وهم الأموات — في الأمم الحية . ومن الدعوة إلى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فرض على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة، فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الإيمان وأقل الأعمال في هذا المقام، ومن الدعوة إلى الله ظهور المسلمين — أفرادا وجماعات بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة وعلم وعمل، وصدق وأمانة فذلك أعظم مرغبا للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفر لهم منه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال عيارا على الأقوال . ومن الدعوة إلى الله بعث البعثات إلى الأمم المسلمة ونشر الكتب بالاستنها وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيهم . كل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله في سنة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسنة السلف الصالح من بعده، فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه¹

وبعد هذا العرض المستفيض لمجالات الدعوة وفتونها يخلص إلى إجراء مقارنة بين الدعاة الصادقين والدعاة الكاذبين، ويجعل ذلك تحت عنوان بارز وواضح الدلالة والهدف فيقول: "تفرقة"

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 1/ 177.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

(ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله صادقا في دعواه، فلا بد من التفريق بين الصادقين والكاذبين، والفرق بينهما — مستفاد من الآية — بوجهين:

الأول: أن الصادق لا يتحدث عن نفسه ولا يجلب لها جاها ولا مالا ولا يبغى لها من الناس مدحا ولا رفعة، أما الكاذب فبخلافه، فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله، وهذا الفرق من قوله تعالى "إلى الله".

الثاني: أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان فلا تجد في كلامه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعاء مجردا، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب . وأما الكاذب فإنه بخلافه، فإنه يلقي دعاواه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه يده ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعدا عن الصراط المستقيم، وهذا الفرق من قوله تعالى "على بصيرة"¹

ولا يخفى على القارئ أن الغرض من هذه المقارنة بين هذين النوعين من القائمين على الدعوة إلى الله هو تمييز دعوته عما يقوم به أصحاب الطرق والزوايا من دعوات التضليل ويحاولون تغليط الناس بأن لا فرق بين الأنواع إلا في الظاهر، فالكل يدعو إلى الله وإن اختلفت الوسائل والمناهج.

وفي تفسير قوله تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .."² نراه يعقد فقرة تحت عنوان "الحكمة" فيسهب في تفسير معنى الحكمة تعريضا بفساد مناهج الطريقين وتديلا على صحة مذهبه في الدعوة فيقول: (الحكمة هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن، المبني على ذلك العلم، فالعقائد الحقّة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال حكمة، والأعمال

¹ - المصدر نفسه: 1 / 178.

² - سورة النحل، الآية 125.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

المستقيمة والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد حكمة، والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة وهي علم وعمل نفسي حكمة، والبيان عن ذلك كله بالكلام الواضح الجامع حكمة، تسمية للدالّ باسم المدلول¹.

التجديد في مجال الفقه والتشريع ويتجلى في:

1 — محاولة تجاوز المذهبية الضيقة وربط الأحكام بأدلتها مع الميل إلى

الاجتهاد بنوعيه الإنشائي والانتقائي.

كان الإمام ابن باديس يحمل في برنامجه الإصلاحية نظرية تجديدية في تدريس الفقه لطلبة العلم سواء في المراحل الأولية، أو في مراحل التخصص، (فكان يوصي في قسم التخصص في القضاء والفتوى ببرنامج يحتوي على التوسع في فقه المذهب ثم الفقه العام، وأوصى أن يدرس كتاب بداية المجتهد لابن رشد مع دراسة آيات وأحاديث الأحكام وعلم التوثيق والتوسع في علم الفرائض والحساب والإطلاع على مدارك المذاهب حتى يصبح الطلبة بعد تخرجهم فقهاء إسلاميين ينظرون — على حد تعبيره — إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذاهب الضيقة)².

(وهنا لابد من الإشارة إلى أن محاولة ابن باديس تقترب بصورة أو بأخرى من محاولات إصلاح الأزهر لدى معاصريه، فقد كان كل منها يستهدف كسر حاجز العزلة عن المعهد الذي يدعو إلى إصلاحه وإعادة تقويم رسالته في المجتمع، بحيث يملك المتخرج منه قدرة التوجيه، ويحتل مركزا يتيح له تحمل مسؤولية التغيير ليكون بالتالي قدوة للمواطن الصالح، وقدوة في العمل والتفكير معا)³.

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 1 / 183.

² - عبد الرحمن سلوادي، ابن باديس مفسرا: 174.

³ - المصدر نفسه: 175.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

لقد كان ابن باديس عليه رحمة الله يرى بأن من أسباب الجمود في الدين والبعث عنه تلك المذهبية الضيقة التي تزايدت مع الزمن وكونت حجبا كثيفة بين عامة المسلمين وبين كتاب الله تعالى وسنة نبيهم عليه السلام، مما صار يمثل هجرا لكتاب الله وصدا عنه وإن اختلفت الأسباب والمظاهر، فأصاب المسلمين من الفساد والتخلف ما يصيب المشركين بسبب إعراضهم عن كتاب الله وهدى نبيه، وفي ذلك يقول: (وبين القرءان أصول الأحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرنا واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة، محجة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها)¹.

ويتحدث ابن باديس عن التعليم الذي كان سائدا في عصره، وفي مراكز الإشعاع التي كانت الأمة تعلق الآمال عليها كجامع الزيتونة مثلا فيقول: (فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرءان من تعلم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عن غيره مما هو دونه بعدد المراحل)².

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 1 / 108.

² - المصدر نفسه: 1 / 219.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

2 — التركيز على إبراز حكمة التشريع الإسلامي وتبيين مزاياه في العقائد والعبادات والأخلاق وتقديمه كنظام صالح لكل زمان ومكان .

ففي تفسير قوله تعالى: "ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً"¹ عنون لتفسير هذه الآية بـ "آية الأخلاق" ثم قال: (تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل والتخلية بالفضائل، والعجب هو أساس الرذائل، فأول الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك، ومن لم يكن معجباً بنفسه كان بدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتزه عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على حب الكمال وكراهية النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلية تدعوه إلى ذلك التخلق والتزه، فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له وإليه هزة، فلا يزال بين تلك التذكيرات الإلهية والجبلية الإنسانية الخلقية يتهدب ويتشذب حتى يبلغ ما قدّر له من الكمال، ولهذا المعاني التي تتصل بهذه الآية الكريمة — وهي أصول في علم الأخلاق — عنوناً عليها بآية الأخلاق)².

وبعد أن فسر مجموع الآيات عنون لها بعنوان جامع بقوله:

"نظرة عامة في الآيات المقدمة"

ثم قال: (قد تضمنت هذه الآيات على قلتها الأصول التي تتوقف حياة النوع البشري وسعادته من حفظ النفوس والعقول عليها "ولا تقف.." الآية . والأنساب والأموال والحقوق "وأوفوا بالعهد، وأوفوا الكيل" . والأعراض "ولا تقربوا الزنا، ولا تقف" . والدين الذي هو عمدة ذلك كله، وفي حفظها حفظ لجميعها، وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: "لا تجعل مع الله إلهاً.." وختمها بقوله تعالى: "ولا تجعل مع الله

¹ — سورة الإسراء، الآية 37.

² — ابن باديس نحياته وآثاره: 277/1

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان بخلف

فمن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: "كُلًّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءِ رَبِّكَ مُحْظُورًا"¹

قال: (وقد أفادت الآية — حسبما تقدم — أن أسباب الحياة وال عمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وإن من تمسك بالسبب بلغ — بإذن الله — إلى سببه، سواء كان برا أو فاجرا مؤمنا أو كافرا، وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقبة بالعلوم والصناعات، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فحسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود لهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب، ولو أن المسلم تمسك بما كما يأمره الإسلام لكان — مثل سالف الأيام — سيد الأنام.²

إلى أن قال: (إن من أعظم العبر ما نشاهده في أحوال الخلق أما وجماعات وأفرادا من الاختلاف الشديد .. كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير، وعجيب صنع العليم الحكيم، فممكنهم تعالى كلهم من الأسباب وإدراك العقل وحرية الإرادة، ثم فضل بينهم هذا التفضيل .. وفقه أسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة وال عمران والاجتماع، فلذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله: "انظر كيف فضلنا

¹ - سورة الإسراء، الآية 20.

² - ابن باديس حياته وآثاره: 212/1

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
بعضهم على بعض " و"كيف" سؤال عن الأحوال، والنظر المأمور به هو نظر القلب
بالفكرة والاعتبار¹.

3 - ربط الأحكام الشرعية بمقاصدها، والإسهاب في التنظير والشرح لهذا
العلم العظيم من علوم الشريعة

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن
نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئنا كبيرا"² نجد الإمام ابن باديس يمهّد لها بقوله: (هذه
النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها ليحفظها، فكان حفظها أصلاً
قطعيًا وكلية عامة في الدين، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه
ستكلم عليها واحداً واحداً ..)³

ثم أفاض الحديث في هذه الوجوه الثلاثة تحت عناوين واضحة ومميزة هي
الوجه الأول: حفظ النسل.

الوجه الثاني: حفظ الفرع .

الوجه الثالث: عدم العدوان⁴.

فبعد أن أنهى تفسير مجموعة من الآيات من سورة الإسراء ختمها بعنوان جامع
هو "نظرة عامة في الآيات المتقدمة" فقال تحتها: (قد تضمنت هذه الآيات على قتلها
الأصول التي تتوقف عليها حياة النوع البشري وسعادته من حفظ النفوس والعقول
"ولا تقف" الآية . والأنساب والأموال والحقوق "وأوفوا بالعهد، وأوفوا الكيل"

¹ - المصدر نفسه: 213/1

² - سورة الإسراء، الآية 31.

³ - ابن باديس حياته وآثاره: 252/1.

⁴ - المصدر نفسه: 252/1-257.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف
والأعراض "ولا تقربوا الزنا، ولا تقف.." والدين الذي هو عمدة ذلك كله، وفي
حفظه حفظ لجميعها، وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: "ولا تجعل مع الله إلها آخر.." .
وختمها بقوله "ولا تجعل مع الله إلها آخر" بيان من الله تعالى خلّقه بأن الدين هو أصل
هذه الكمالات كلها، وهو سباج وقايتها وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك
الأعمال وقوامها ومنه بدايتها وإليه نهايتها.¹

وفي نهاية هذا البحث نقول: لم تكتب الأقدار للعلامة ابن باديس أن يدون
موسوعته في التفسير لأسباب يطول حصرها وبسطها في هذا المقام، ولكن الآيات التي
كان يتخيرها للنشر في صدر مجلة الشهاب إذا جمعها الباحث استطاع أن يكون صورة
عن معالم منهجه في التفسير، كما يستطيع من جهة أخرى أن يعرف كيف استطاع
ابن باديس عليه رحمة الله أن يمرر رؤاه في التغيير والإصلاح من خلال ربطه بين ما
تتضمنه آي القرآن الكريم وحاجة المجتمع الجزائري ..
ولله ذر الشيخ البشير الإبراهيمي الذي لخص معالم منهج ابن باديس في التفسير
فأحاط بها وحوها في جمل مفيدة وعبارات محدودة فقال:

(ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ
عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم،
فسلك في درس كلام الله أسلوباً سلقى التزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى،
مستمداً من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها، وقد
قرأنا له في بعض افتتاحيات الشهاب أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة
في مواضع مخصوصة كالطبري في المأثور والكشاف في أسرار الإعجاز، وذلك صحيح
ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تحطئ

¹ - المصدر نفسه: 1.281.

مظاهر التجديد في التفسير ----- د. رمضان يخلف

وتصويب، أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي، ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون وسنن الله فيه، ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصاريف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التحريية، وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القراءان بما على هذه الطريقة في القطر الجزائري، فإنه من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخرا لا يقوم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به الأجيال، ولتمخّض لنا ربع قرن من تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية، ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير علم أي علم ضاع وأي كثر غطى عليه الإهمال.¹

فمن خلال كلام الشيخ محمد البشري الإبراهيمي السابق — وهو الخبير بمنهج صديقه في الدرب — نستطيع تعداد جوانب التجديد والإبداع في منهج ابن باديس في التفسير، كما يتضح من خلال كلامه أيضا أهمية هذه الجوانب وقيمتها العلمية وآثار حركته الإصلاحية على جهوده في التفسير.

رحم الله شيخنا عبد الحميد بن باديس، ونفعنا الله بعلمه وتفسيره، وجعلنا مما ساهم في إحياء دعوته وتحقيقه بعض آماله، وصلى الله على نبيه وصحبه وسلّم تسليمًا.

¹ - ابن باديس حياته وآثاره: 2 / 105.